

الفصل الأول

الأسطورة

الأسطورة كلمة يحوطها سحر خاص . . . يعطى لها من الامتداد ما لا يتوفر للكثير من الكلمات في أى لغة من اللغات . . . إذ هي توحى بالامتداد عبر المكان وعبر الزمان . . . توحى بالعطاء الممنوح للعقل الإنسانى وللوجدان الإنسانى . . . توحى بالحلم حين يمتزج بالحقيقة ، وبالخيال وهو يشرى واقع الحياة بكل ما يغلقه ويطويه وفي إسار من الوهم يخفيه ليخلق منه دنيا جديدة هي شعر الاحداث ، وقوم الطموح الإنسانى نحو المعرفة ونحو المجهول . . .

وكل الشعوب عرفت الأسطورة والتقت عندها . . . فهي تراث الإنسان حيثما كان وأينما كان . . . على بعد المكان ، ، وعلى اختلاف الزمان يلتقى الإنسان بالإنسان عند نسيج الأسطورة المتشابه الموحد . . . ومنه يستمد الإنسان عطراً لا ينمحي ، يذكره بقدرته على الخلق والمحاكاة والإبداع .

ومن الأسطورة تسربت ألوان الأدب ومنها تحرر فكر الإنسان ليخلق مختلف أشكال الأدب . . . فالبشرية لم تعرف أقدم ولا أعرق من الأسطورة لتحكى أحلامها وآمالها ، وترسم دنياها المليئة بالتطلع والشادية إلى المعرفة . . . ومن هنا كانت الأسطورة في البدء منبع الإلهام الأدبي ، وفي النهاية دافعاً إلى علوم حديثة كثيرة كعلوم الأثروبولوجي والأنتولوجي والسيكولوجي .

ومن المدهش أن يسمى الاهتمام بالسحر والعادات القبلية والطقوس الدينية والاضطرابات الإنسانية علوماً . ولكن محيلة الإنسان وما كانت لتم لولا هذه العلوم التي اعتبرت مفاتيح الوصول إلى كنوز النفس الإنسانية الثرية والغامضة معاً.

هذه الأهمية للأسطورة تجعلنا نقف أمام السؤال الذى يجب أن يكون

هو نقطة البدء - هذا السؤال هو - " ما هى الأسطورة ؟ " .

ولكن هذا السؤال البسيط له أكثر من أجابه فالأسطورة هى محاولة

الإنسان الأول فى تفسير الكون تفسيراً قولياً والأسطورة هى دين بدائى .

والأسطورة هى الجزء القولى المصاحب للشعائر الدينية الممارسة بالرقص

أو الحركة فى الأديان البدائية الأولى .

والأسطورة هى محاولة لتفسير ظواهر الوجود وربط الإنسان بما

تعددت التعريفات أذن وذهب كل عالم إلى رأى ، واتجه كل دارس

على تفسير ولكن الكل يلتقون عند ملاحظات محددة وواضحة .

فالباحث هرذر وهو من دارسى التراث الشعبى يقول

" أن الحكايات الشعبية بأسرها ، ومنها الحكايات الخرافية والأساطير ، هى

بكل تأكيد بقايا المعتقدات الشعبية ، كما أنها بقايا تأملات الشعب الحسية وبقايا

قواه وخبراته ، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف ، وحينما كان يعتقد

لأنه لم يكن يرى ، وحينما كان يؤثر فيها حوله بروح ساذجة غير منقسمة على

نفسها " .

ويقول الكاتب الالمانى فريدرش فون ديرلاين فى كتابه الحكاية الخرافية :

" من السهل أن نعثر على بذور الحكاية الخرافية فى جميع أنحاء الأرض ، فنحن

نعثر عليها عند شعوب الحضارات القديمة ، كما نعثر عليها عند البدائين فى عصرنا

الحاضر ، وقد كانت بعض الشعوب تمتلك موهبة خاصة فى خلق الحكايات

الخرافية مثل الهنود والعرب والكتلين ، إذ صاغوها فى أكمل صورة فنية لها ، كما

غذوها بخيالهم وكسوها بالبهاء والروعة " .

ويقول ثيودور بنفى صاحب الكتاب المشهور لدى دارسى الأساطير والأدب القديمة والذي درس فيه الأصول الاسطورية لبعض الحكايات والأساطير الهندية تحت عنوان : بنتشا ننترا . . .

" نشأت أنواع الحكايات الخرافية والأسطورية في بلاد الهند وهى فى أصلها حكايات بوذية كانت تحكى لأغراض تعليمية ثم انتشرت فى أوروبا عن طريق العرب " .

من هذا نرى أنه ليس هناك فاصل مكانى أوزمانى بين موروث الإنسانية من أساطير ، وإن الأسطورة لها جذور فى العالم القديم والعالم الوسيط بل ولها جذور فى كل آداب الدنيا ولدى كل شعوبها . . .

ويذهب بعض الدارسين إلى أنه لا تكاد توجد فكرة أسطورية ليس لها شبيهة فى مكان آخر وزمان آخر على اختلاف واضح بين الزمانين والمكانين .

ويحدد الأخوان جريم وهما من أوائل من جمع الحكايات الخرافية فى أوروبا ولفى النظر إليها ، يحددان هذا التفاعل بين الشعوب فى الأساطير والحكايات الشعبية والخرافية فيقول ولیم جريم :

" أن التشابه بين الحكايات الخرافية رغم ما يفصل بعضها عن بعض من مسافات زمنية ومكانية بعيدة ، ليس أقل مما بين الشعوب المختلفة من أمور متشابهة رغم انفصالها ، ويرجع بعض هذا التشابه إلى تماثل الأفكار الأساسية عند هذه الشعوب وإلى وسيلتهم فى عرض شخصيات بعينها ، كما أن البعض يرجع إلى ما عندهم من وقائع متشابهة وإلى طريقتهم فى إيجاد تفسير لها " .

من الممكن إذن أن تتشابه أساطير الشعوب ، فى الأفكار الأساسية بل ربما فى بنية الأساطير نفسها . وحتى الألفاظ المفردة يسهل مقارنة بعضها بعض على الرغم من انعدام صلة القرى بينها وذلك عن طريق تقليدها لأصوات الطبيعة . وقد

يكون التقليد مختلفاً بعض الاختلاف كما قد يكون متفقاً تمام الاتفاق وقد نسند هذا الاتفاق إلى الصدفة ، ولكن الحقيقة أن الأسطورة تحدد القرابة الحقيقية بين النسيج البشرى كله في كل مكان وكل زمان . . .

هذه الجولة حول الآراء والأفكار تثبت لنا أهمية الأسطورة وأهمية دراستها ، وفي الوقت الذي نرى فيه علماء الغرب يهتمون اهتماماً واضحاً بالأسطورة ويحاولون رد التفكير البشرى كله إلى هذه البداية الأولى لحركة العقل حين أراد التخيل وحين أراد التعبير نجد دارسينا العرب ما زالوا في المراحل الأولى لهذه الدراسة . ونعجب لسر تخلف هذه الدراسة في أدبنا العربي وسر تخلف العلوم المصاحبة لها كعلوم الأجناس والعادات في دنيا الدراسات العربية . . .

الأسطورة في اليونانية Mythos ميثوس . . . وهي في الإنجليزية Myth ميث . . . وعلى ذلك فإن المعنى في اللغتين هو " الشيء المنطوق " .
وهنا نلاحظ القرابة بين هاتين الكلمتين وبين كلمة Mouth موث الإنجليزية التي تعني فم . . . فمعنى الأسطورة إذن هي الكلام المنطوق ، أو القول ، ولكن أي قول ؟ .

يذهب الدارسون إلى أنه القول المصاحب للعبادة والطقوس الدينية . . . فهي إثبات للجانب الكلامي من الحركة في العبادة قبل أن تصبح هي نفسها حكاية حول هذه الطقوس أو منبثقة من هذه الطقوس . . .

والسؤال الآن هو هل بقيت العبادات الوثنية العربية وهل احتفظ تاريخ العرب بها ؟ وبالتالي هل بقيت الأعمال القولية المصاحبة لها ، أو هل بقيت الأسطورة العربية في شكلها الأول ؟ .

والإجابة على السؤالين بالنفي ، وهذا يعني أن المصادر العربية لم تعن بالحفاظ على الأسطورة في مرحلتها الأولى لأنها عنيت على العكس بتدميرها وإخفائها

والقضاء على الأسطورة في مرحلتها الأولى لأنها عنيت على العكس بتدميرها وإخفائها والقضاء عليها في محاولتها لطمس الوثنية والقضاء عليها
وعلى هذا نستطيع أن نقول أن العرب لم يحتفظوا لنا بالأساطير الطقوسية أى تلك التي تعد الترجمة القولية للطقوس الوثنية فمع القضاء على الوثنية قضى تماماً على كل ما صاحبها من طقوس حركية وقولية معاً في الحقيقة استطاع الوجدان العربي أن يهرب بأصداء لكثير منها ويتسلل بما عبر التاريخ ولكن هل اختفت آثار هذه الأساطير تماماً

فبالنسبة للأسطورة التعليلية وهي تلك التي تحاول أن تفسر الظواهر الكونية حولها وقبلها فنسبها إلى قوى غير ظاهرة في حكي روائى يربط بين الفكرة والحركة ويجسد الظواهر لتصبح كائنات متحركة تؤثر وتتأثر بغيرها فمما لا شك فيه أن كتب التاريخ وكتب الأدب العربي وخاصة كتب التفسير قد حفلت بالكثير مما هو أصداء لهذه الأساطير فمن ذلك مثلاً أسطورة خلق الكون ، وما أصل الماء والهواء والطين والنار ، والبرق والرعد والمطر والنور وكيف تتوالد بعضها عن بعض ولم يتداخل تأثير بعضها في البعض الآخر ؟ ومنها كذلك حكايات السحر وأساطير الكهانة ، وأحاديث الروحانيات فيما بعد وإمكانات أصحاب الاتصال الروحي في التأثير على المكان بل وعلى الزمان

أما الأسطورة الرمزية فهي الوليد الطبيعي لأسطورة التعليل إذ تتحول القوة إلى رمز مجسد وتخلع صفات الإنسان على الآلهة أو الأبطال الخرافيين ، ويمتزج في بعضها قد رأت الإنسان المحدودة بطاقات هائلة تؤكد قدرته على مواجهة المجهول والتغلب عليه . من ذلك مثلاً الأساطير التي تمثل معنى أمومة الأرض ومعنى ارتباط الإنسان بها ، والأساطير التي تجسد العبور ، أى عبور البطل إلى مرحلة التضج ، والأساطير التي تتحدث عن رمز موت البطل وعن رمز وولادة البطل

والمثقيات في السير الشعبية والملاحم العربية تشير إلى تأثير كبير بهذه الأساطير وما يتبقى منها في ضمير أصحاب السير والملاحم .

ويقترّب جداً من الأسطورة الرمزية ، تلك الأسطورة التي يضعها الباحثون تحت إطار الأسطورة التاريخية . وفي هذا اللون من الأساطير يتم ارتفاع البطل بحكم قدراته أو بحكم أدواته إلى مصاف أصحاب القدرات الخارقة فيأتون بالمعجزات ويحققون لأنفسهم أو للرمز الذي يرمزون إليه الانتصار على القـبـر أو على القوى المعرفة للإنسان وبعض الأساطير تحمل بالفعل لابطاها عمق الرمز في الانتصار على ما يضايق الإنسان ويفعل قواه ويحد من قدراته ، بينما تحمل بعض الأساطير الأخرى تمجيد أعمال الإنسان القوى ، متخيلة في منطقتها ومكشفة إلى بؤرة تتجمع حولها كل ملامح العظمة المترسبة في نفس الإنسان في بحثه عن الخلود وبقاء الصيت .

هذه الأنواع المتعددة من الأعمال الأسطورية التي درسها رجال علم الأسطورة وقسموها وربطوها بالتاريخ الأول للإنسان ، ماذا بقي منها للإنسان العربي من تراثه ؟ .

الواضح أنه لم يبق إلا أصدائها وآثارها أما هي فقد اختفت في ضمير التاريخ فما دون وبقي إنما لم يبق بعد ظهور الإسلام ، وظلت هذه الأصداء عند رجال الأدب مجرد أخبار تسللت إلى كتب التاريخ أما عن جهل أصحابها بالتحقيق العلمي للأبحاث فقبلوا الغث مع السمين . وكان الغث عندهم هو هذه الحصيلة الضخمة من أصداء الأساطير والحكايات الخرافية . وأما تسللت عن عمد أو قصد أصحاب هذه الكتب أو الرواة الذين نقلوا عنهم إدخال هذا اللون من الأخبار لإفساد التاريخ الحقيقي بما أسماه بالإسرائيليات ، إيماء إلى الأغراض فيها وفي روايتها